في الادب المصري

للاستاذ اغناطيوس كراتشقوفسكي

طالع قراؤنا دروس المستشرق جيب على المنفلوطي (المشرق ٢٧[١٩٢٩] ٦٨٤) وعلى طه حسين(١ (المشرق ٢٨[١٩٣٠]٢٥٩) وها انّا ندعوهم اليوم الى سماع الاستاذ كراتشقوفسكي المستشرق الروسي المعروف. قضى عامين في الشرق ، وتعرّف الى اعظم ممثلي الادب في سورية ومصر، وانشأ في بيروت سنة ١٩٠٩ مقالاً في الروايات التاريخية المصرية اتخذه اساساً لما نشره فيما بعد في اوربة في هذا الموضوع. وراقت دروسه المستشرقين زملاءه ، فاستأذنه احدهم وهو كامبفماير ، صاحب مجلة الجمعية الالمانية للمعارف الاسلامية ، في تدوين درسه في مجلته . فاذن له كراتشقوفسكي بعد ان اعاد النظر في ما كتبه منذ عشرين عاماً ، ونقّحه وزاد عليه . وهذا اول ما ظهر عند الافرنج في هذا الصدد ، وقد يكون تكملة لكتاب تاريخ الآداب العربية للاب شيخو ، وفيه من النظرات والفوائد ما هو جدير بالاعتبار . نتمناه لمن لا يتاح لهم ان يطالعوا امثاله من القراء (٢١ : ١ ، ٢ ؛ ص ٥١ وما بعدها): ف. ت.

اقترح الاستاذ كراتشقوفسكي مقاله في الكلام على الادب الحيّ والادب الميت . فالادب الحيّ لا ينفك عن النمو وعن العمل ، وله مفاعيله في حياة العصر الفكرية والاجتماعية. اما الادب الميت فهو الذي وقف عن النموّ وجفت اغصانه وليس له الّا الأثر التاريخي. وتناول الكلام في الادب العربي ، فيما قبل الاسلام الى العصر الخامس عشر الميلادي ، فقال ان زمانه مضى وزال تأثيره في الحياة الفكرية البشرية الحالية مع انه كان ايام عزه ، في القرون الوسطى ، لسان حال الامة العربية ، ومورداً استقى منه الافرنج. واطلق عليه العبارة التي قالها احد المستشرقين في علم الفقه في الجزائر ان قيمته هي اثرية محضة. وتدارك

---

١) نشرت مجلة الحديث الحلبية المقال بحرفه عن المشرق ، ولم تذكر المصادر ، فبخست الادب حقه.

كراتشقوفسكي معارضة من يخاصمه على المقالاة في الكلام فقال : ولعله يأتي بعدنا جيل يتقصى آثار الادب القديم وتأثيره اكثر مما فعلنا فيكشف على ما لم نقف عليه . وحصر درسه في الروايات الادبية التاريخية . فضرب صفحاً عن كتاب كليلة ودمنة وكتاب الف ليلة وليلة ، وكلاهما خارجان عن دائرة المؤلفات العربية الاصيلة ومادتهما مأخوذة من العنصر الآري او الغير السامي .

واتى على ذكر الروايات التاريخية العربية المحضة كايام العرب ، وسيرة عنتر ، وقصة بني هلال ، وسيرة سيف ذي يزن ، وسيف التيجان ، وسيرة بيبرس ، وقال انها نالت سهمها من النفوذ في عصرها ، وعلمت الافرنج امورًا ساعدتهم على وضع نظام الفروسية الغربي ، وعلى تدوين قصصها البطلية . ثم غاض ماؤها وجف عودها فيبست وماتت ... ومضت قرون ثم ظهر في الادب العربي غرسة جديدة ، وانبتت لانها نمت في تربة اوربية ، تلك الغرسة انما هي الروايات العصرية الحديثة .

اخذت مادتها من المؤلفات الافرنسية والانكليزية خاصة . ومن الالمانية بواسطة ما ترجم منها الى اللغتين السابقتين . وكان ناصيف اليازجي وبطرس البستاني اعظم من ساعد على نشأتها الجديدة في اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر وهما دعامة النهضة الحديثة . لم يعملا مباشرة في الداوة التي حصرنا فيها مقالنا ، ولم يصرفا همهما الى التأليف الادبي الجميل (*Belletristik*) المميز القرن التاسع عشر ، بل حصرا جهودهما في درس مؤلفات القرون الوسطى وفيها افرغا كنانتهما فكان لهما نفوذ عظيم ...

ومنذ ثمانين سنة دبت الحركة في الاقلام فدفعتها الى التجديد والتعريب . وعقب التعريب مؤلفات كانت تنمّ عن تقليد دوماس وڤيكتور هوجو ووالتر سكوت . وبرزت الروايات التمثيلية للوجود وفي مقدمة كتبة ذلك العهد اديب اسحاق ، وخليل اليازجي ، ونجيب حدّاد ، حفيد ناصيف اليازجي . اخذ نجيب رواياته عن الافرنج فتعلم عليهم ومضى في سبيله ، ومؤلفاته الروائية والشعرية خاصة لا تزال موضوعاً لاعجاب الناس في يومنا .

ومن البديهي ان جهود هؤلاء الكتبة في الروايات التمثيلية ساعدت على

حركة تأليف الروايات التاريخية. فنشرت مجلة المشرق رواياتها، وهي عنوان لما يمكن ان يستقصه الكاتب من حوادث تاريخ الشرق لسرد الاخبار الروائية. ولم يبلغ الاميركان في هذا الصدد الشأو التي بلغت اليه كلية اليسوعيين. ولم يخلوا المكانة اللائقة بهمتهم، بل حصروا جهدهم في تعريب بعض الروايات الغربية، والتصرف به فيما يعود بالمذمّة على الكاثوليك وسواهم من الغير البروتستانت.

فسبق الافرنسيون الاميركان في ذلك المضمار، ومما يشهد على نجاحهم، ان اول من وضع رواية تاريخية في اللغة العربية كان من تلامذتهم، وهو جميل نخله المدوّر. ولد في بيروت، وتخرج على الآباء اليسوعيين، وطبع في القاهرة سنة ١٨٨٨ كتابه «حضارة الاسلام في دار السلام.» ولم يكن الكتاب رواية في حصر المعنى، اي انه ليس فيه عقدة ولا سعاية، بل هو سلسلة رسائل صادرة من رجل من رجالات الحكم في القرن الثاني الهجري على ايام الرشيد ومعاصريه. فاعيا المؤلف ذكر ذلك العصر ورجاله واخلاقه ولم يشطّ عن الحقيقة التاريخية، فحط كتابه حطةً في تاريخ الادب الروائي العربي. وتوفي المدوّر شاباً ولم ينشر سائر مؤلفاته.

وخص كراتشقوفسكي جرجي زيدان بصفحات عدة. زيدان «ابو الروايات التاريخية» ولد في بيروت، ودخل خادماً ودارساً في الجامعة الاميركية، وكدّ وجهد. ولم تمض عشر سنوات على خروجه من معهد التعليم الا وقد حاز شهرةً واسعة في عالم الصحافة والرياضيات والروايات. ومن مؤلفاته: الالفاظ العربية والفلسفة اللغوية — انساب العرب القدماء — البلغة في اصول اللغة — تاريخ اللغة العربية — تاريخ مصر الجديد — تاريخ انكلترة — التاريخ العام ... في السنة ١٩٠٢ اظهر كتابه في «تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر» اخذاً عن «الهلال» مجلته، وباشر طبع «تاريخ التمدن الاسلامي» بخمسة اجزاء. فالتفت اليه من عني بالآداب العربية من الافرنج، ونقل الاستاذ مرغوليوث الى الانكليزية السفر الرابع من ذلك المؤلف وضمه في مجموعة جيب الشهيرة. وعسير بتّ الحكم في هل اخطأ الاستاذ مرغوليوث في عمله ام اصاب. ولكن لا مناص من القول ان تاريخ زيدان مبني عن تصميم

وأساس جامع لشتى المواد . ومفيد ليس فقط لعامة القراء العرب ، ولهم فيه غنى عن مؤلفات كرير وغولدسيهر ، بل للعالم الاوربي ايضاً.

وذكر كراتشقوفسكي كتاب تاريخ الآداب العربية والمناهل التي استقى منها زيدان ونقد الناقدين عليه ، ونوّه بمجلة الهلال ومعظم مقالاتها من قلمه مما يدل على طول باعه وقال : وقد يُلام زيدان على بعض التسطح ، وعلى قلة التعمق في المواضيع ، واوليات مؤلفاته تنمّ عن نقص في معرفة الآداب العربية الاسلامية بكمالها . ولكن مكانته على الاجمال عالية بفضل جهاده وثباته على العمل ، وقد نال تلك المكانة ليس فقط في الادب ولكن في درس احوال العالم العربي العصري ، فتعلّمها وعلّمها . وكان الادباء على ايامه يتبارون في ميدان ضيقوا فيه على القرّاء بين انيق النثر ونامم الشعر . فاعرض زيدان عنهم وبرهن بعمله ان المشاكل التاريخية والعمرانية الكبرى تلفت نظر القرّاء وتسرّهم اجمعين . ورمى الى اغراض شتى فطوراً اخطأ ، وطوراً اصاب ، وصار هدفاً لنقد الصحافة والمجلات العربية.

وتوسع كراتشقوفسكي في الكلام على زيدان المؤرخ الروائي وقسم رواياته قسمين الاول يشمل : استبداد المماليك ، والمملوك الشارد ، واسير المهدي ، وليس لها بينها صلة حقيقية . اما الثاني فحلقاته مرتبطة متواصلة بالموضوع والزمان والمكان اي منذ مستهلّ الهجرة الى ايام الفتوح: فتاة غسان ، ارمانوسة المصرية الخ . بهذه الروايات نال زيدان شهرة واسعة . فحذا حذوه محررو الجرائد السيارة كعبد المسيح الانطاكي الحلبي الاصل مدير العمران (١٩٠٣) ، المتوفى سنة ١٩١٧ . ونُقل الى الفارسية والهندستانية والانكليزية والافرنسية والروسية حلقات وسلسلة منها.

النقد الادبي يتناول زيدان من الوجهتين التاريخية والفنية . وانه اختار من التاريخ المواضيع العصية التي يتولد منها احتكاك المصالح وحدوث الحوادث التي تنجلي فيها اخلاق الاشخاص سواء اكان ذلك في بلاد الاندلس ، او على ايام بني امية ومشاحناتهم مع اهل الشيعة ، او على عهد دخول الاتراك في الدولة العربية . لقد ادى التاريخ الاسلامي مادةً وافرة لفولتير ولامارتين وغوته وغيرهم

في تأليف رواياتهم التمثيلية . ولا سبيل الى نقد زيدان لاتخاذه دعائم رواياته من ذلك التاريخ . على ان القسم الاول هو دون الثاني قيمةً تاريخية ، وعلة ذلك ان المؤلف لم يكن قد ادرك الحبرة التي رقي اليها فيما بعد ، فضلًا عن ان وقائع الروايات الاولى كانت اقرب عهدًا اليه من ان يوفق في النظر اليها عن البعد الزمني الذي لا بد منه للالمام بالحوادث والاشخاص وانتخاب ما يصلح منها للرواية . وامتازت سلسلة زيدان الثانية بمطابقة قشورها لبها ، وصورتها مادتها ، وانشائها معانيها .

اما زيدان الروائي الفني فاول ما يقال فيه ان رواياته مرآة الواقع بما فيها من صورة حياة الناس . تلك الصورة قد ابرزها المتهتكون من الكتبة بما فيها من جميل او شنيع . اما زيدان فتحاشى عن العار وستر الشنار ، فاستحق الثناء . كشف على اطراف الحادثة كثيرًا ، واهتم بتحليل اخلاق اشخاصه قليلًا . ولم يُسمع عن اقوالهم وصناعتهم ابعد من الحدود التي احتدها في الزمان والمكان السرحاً للرواية . ان الكاتب ابن الفن هو من له قوة المخيلة والشعور . وهذه مقوة لتبرز في الاشخاص الذين يثلون ادوارهم في رواياته . وفي وصف الطبيعة ومحاكاتها . اما ابطال زيدان فاقرب اقوالًا وعواطف الى رجالات التاريخ الصحيح منهم الى مبتدعات الشعراء والمتفنين . واما صورته للطبيعة فهيفاء شاحبة ، وجماله الفني بعيد الخيال . على ان ذلك النقص ليبدو خاصة في اوليات مؤلفاته ، والخبرة مع الزمان خفقت من وطأتها . ولا عجب ان ينال التاريخ حظه الاوفر من الروايات وهو الميدان الواسع الذي جال فيه زيدان بقلمه . ومما يذكر له بالفضل انه عالج المواضيع الاسلامية ، ولم يمسّ المسلمين بعواطفهم . وظهوره في الادب العربي العصري رفع منزلة الادب الروائي الى مستوى الادب الحي .

وتكلم كراتشقوفسكي عن فرح انطون ، ويعقوب صروف ، وخليل خياط ، وامين ظاهر خيرالله ، وخليل بك سعاده ، وابدى فيهم رأيه . . . ونوه بالمجادلة التي حدثت بين المستشرقين منذ ثمانين سنة حول الروايات التاريخية . وختم بعبارة الامل في حسن مستقبل الروايات التاريخية العربية وما يرجى لها من الازدهار بفضل النهضة الادبية العصرية .